

ندوة

الرسول العظيم في القرآن الكريم

معهد الدراسات القرآنية

الثلاثاء 21 أكتوبر 2025

الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على الرسول الأمين وعلى آله وصحبه الأكرمين

أيها السادة، أيتها السيدات.

في بداية هذا الحديث، أنطلق من التوجيه الأول الوارد في الرسالة الملكية التي وجهها أمير المؤمنين، حفظه الله، إلى المجلس العلمي الأعلى، في موضوع الاحتفال بمرور خمسة عشر قرناً على ميلاد الرسول الأكرم، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام. وقد جاءت في هذا التوجيه "التوصية بتنظيم الندوات العلمية في المجالس والمدارس والجامعات والفضاءات العامة، والقيام بالتواصل الإعلامي الرصين للتذكير وللمزيد من التعريف بالسيرة النبوية الغراء، وذلك بأسلوب يناسب العصر ويمس عقول الشباب خاصة، مع التركيز على أن أعظم ما جاء به صلى الله عليه وسلم، لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، هودين التوحيد، وهذا الإحياء مناسبة سانحة للعلماء لكي يُبينوا للناس أن الترجمة الأخلاقية للتوحيد، في عصرنا، والتي يمكن أن يفهمها الجميع، هي تربية الأجيال على التحرر في حياتهم الفردية والجماعية من الأنانية".

انتهى نص التوجيه الملكي، وفيه كما نرى، إشارة واضحة إلى ما بدأت به السيرة وانتهت إليه وهو تربية النفوس على التوحيد، فقد جاء في الخبر أنه صلى الله عليه وسلم كان يمشي في السوق وهو يقول: "أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله

تفلحوا". إن هذه الدعوة جاءت مؤكدة بالقرآن الذي جعلها جوهره الأساس، ومعناها باللغة التي يمكن أن يفهمها الناس في هذا العصر: "أيها الناس، إنكم تبحثون عن النجاح وعن السعادة، فهاكم سبيلها القويم: تخلوا عن أنانيتكم التي هي درجات من الشرك بالله قد تصل إلى الطغيان".

لهذه الغاية الأبدية والتبليغ السرمدى جاء القرآن وبينته السيرة النبوية.

أيها السادة، أيها السيدات،

من المداخل التي يمكن اتخاذها لتبيين الارتباط العضوي بين السيرة النبوية والقرآن الكريم مدخلان:

المدخل الأول: قول القرآن الكريم في الرسول العظيم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: 4).

وقوله عن نفسه: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، وقول السيدة عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كان خلقه القرآن".

والمدخل الثاني: بيان أماناته الأربع، صلى الله عليه وسلم، في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَمِنْ ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الجمعة: 2).

من خلال هذين المدخلين يتأتى اقتراح تقريب مفاهيم في القرآن والسنة من مقابلات لها في لغة العصر، كما اهتمت إليها البشرية من خلال الدرس من جهة، والممارسة من جهة أخرى، ويدخل هذا التقريب في ما هو مطلوب من المبلغين، وهو "مخاطبة الناس على قدر عقولهم"، ومن هذه المفاهيم عشرة تلتقي فيها السيرة النبوية بالقرآن الكريم، وهي:

المفهوم الأول هو الأمية، كما وردت في الآية الثانية من سورة الجمعة، فبالرجوع إلى المفسرين في هذا المقام أيضا نجدهم يقولون كما عند الطبري: الأميون هم

العرب، وفي تفسير مكي بن أبي طالب قوله: بَعَثَ اللهُ في العرب الذين لا كتاب عندهم من عند الله رسولا منهم.

والأُمِّي نسب إلى أُمِّه كأنه كما ولد، وعند الرازي: الأُمِّيون الذين هم على ما خُلِقُوا عليه. وبالرغم مما دار من الجدال بين العلماء في ما يتعلق بكون الرسول كتب أو لم يكتب، ومن ذلك كتاب أبي الوليد الباقي الذي ظل المخالفون يردون عليه إلى وقتنا هذا، وهي آراء أجملها عبد الحي الكتاني في فصل من كتابه "التراتب الإداري"، بالرغم من هذا الجدال فإن ما ذهب إليه مكي والرازي يقربنا من المعنى الذي يمكن أن يستساغ في هذا العصر، وهو أن الأمية تعني الفطرة. وهذه الصفة لا تفترض معرفة الكتابة ولا تتناقض معها. ولا يفهم العقل في هذا العصر أن تكون المعجزة هي نزول القرآن في أناس لا يكتبون، لأن القرآن بدأ بـ "اقرأ"، ولأنه وإلى يومنا هذا يتحدى الأمية بمعنى الجهل بالكتابة، وإنما ينتشر بالكتابة وتؤيده كتب العلوم إذا أراد الله بأهلها الهداية. أما استساغة "الفطرة" في هذا العصر، فلأن عموم المفكرين المحدثين يرون أن الإنسان (الأصلي) (l'homme primordial) يمثل الكائن البشري في حالته الأولى قبل ميلاد الحضارات والقوانين والمؤسسات، فهو إنسان الطبيعة، الإنسان الحر البسيط القريب من عالم الأحياء، وقد كانت هذه الصورة الرمزية للإنسان محل دراسة من قبل الفلاسفة والأنثروبولوجيين وكذا المهتمين بالدراسات الدينية، فهو مفهوم يصلح لفهم كيف كنا قبل المجتمع الحديث، كما يُظهر لنا ما الذي فقدناه عندما صرنا كائنات (متحضرة). من خلال هذا التفكير يعاد اكتشاف الطبيعة العميقة للإنسان وعلاقته بالحرية وبالأخلاق وبالطبيعة نفسها، فهذا الإنسان الأصلي ليس مجرد كائن تاريخي؛ فهو قبل كل شيء فكرة، إنه تجسيد للطهارة والبساطة اللتين ميزتا الإنسان في بدايته، وهو في فلسفة جون جاك روسو كان يعيش في انسجام مع الطبيعة،

تهديه حاجاته الأساسية و"براءته" الطبيعية نحو الآخرين، لم يكن لا فاسدا ولا عنيفا، لأنه لم يكن يعرف لا الملكية ولا المنافسة. ويرى روسو أن المجتمع حوّل هذا الإنسان الطبيعي إلى إنسان أناني تابع للآخرين. وهكذا فالإنسان الأصلي يمثل نموذجا للحرية والتوازن، ولكن دمّرتة الحداثة، وفي تقاليد روحانية أخرى كالديانات الشرقية ينظر إلى الإنسان الأصلي ككائن مستنير في تناغم مع الكون حامل لحكمة غريزية، نسيها الإنسان الحديث.

أما مرجع الإسلام بخصوص هذا المفهوم الذي انطلقنا في الحديث عنه من مفهوم "الأمية"، فنجده في قوله تعالى: ﴿بِأَفْهَمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيباً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: 29). ويرى بعض المفسرين أن معناه: فطر الناس على الدين الحنيف، أي أن الله خلق الناس قابلين لأحكام هذا الدين وجعل تعاليمه مناسبة لخلقهم غير مجافية لها ولا نائية عنها ولا منكرين لها مثل إثبات الوجدانية لله، لأن التوحيد هو الذي يساوق العقل والنظر الصحيح، حتى لو تُرك الإنسان وتفكيره ولم يلحق اعتقادا ضالا لاهتدى إلى التوحيد بفطرته. وتمكن الإحالة في موضوع الفطرة على كتابات منها كتاب الأستاذ عمر الفاروق وعنوانه: "الإيمان فطرة"، وعلى الدرس الحسني الذي ألقاه الأستاذ اليزيد الراضي وعنوانه: "الإسلام دين الفطرة".

المفهوم الثاني هو التزكية، من قوله تعالى "يزكهم"،

ومعناه عند الطبري يطهرهم من دنس الكفر، وعند الماوردي: أن فيها ثلاثة تأويلات: الأول يجعلهم أزكيا القلوب بالإيمان، وهو معنى ابن عباس، والثاني يطهرهم من الكفر والذنوب، قاله ابن جريج ومقاتل، والثالث: يأخذ زكاة أموالهم، وقاله السُّدي.

وعند الرازي، يزكهم: يدعوهم إلى ما يصيرون به أذكاء.
وعند الألويسي يزكهم: يحملهم على ما يصيرون به أذكاء طاهرين من خبائث
العقائد والأعمال.

إن تقريب فهم هذه المهمة النبوية الثانية في غاية الأهمية بالنسبة لأهل هذا
العصر، إذ يتطلب الأمر أن يفهموا ما يتوجب عليهم فعله للتحقق بها، والني
ليس حاضرا بينهم، وإنما يتوجب على ورثته من العلماء أن يعرفوا ما هو
التصريف العملي الممكن لتفعيل "التزكية" التي جسدت التغيير والتغير بإخراج
الناس من الضلال، ولذلك أتينا بعد الطبري بتفسير الرازي وتفسير الألويسي،
إذ يشتم من تعليقهما أن الأمر يتعلق بتغيير إرادي انطلاقا من التوجيه النبوي
وهو تغيير في النفس.

أما البعد الآخر للتزكية في ارتباط مع المفاهيم الحديثة فهو مفهوم التنمية،
فالفعل زَكَّى والفعل نَمَّى في اللغة العربية مترادفان، وهو مفهوم واسع
الاستعمال يضعه الناس اليوم في مركز مطالعهم ونقاشهم ويوصف عادة
بالتنمية البشرية، وهي مفهوم متعدد الأبعاد يتجاوز مجرد النمو الاقتصادي
الذي في القرآن هو مفهوم "التكاثر"، فهو يتعلق بتحسين جودة حياة
الأشخاص من خلال الولوج إلى التربية والصحة والفرص الاقتصادية
والمشاركة الاجتماعية والسياسية، مفهوم أشاعه على الخصوص برنامج الأمم
المتحدة للتنمية في أواخر القرن الماضي من خلال مؤشر النمو البشري الذي
يقيس تقدم البلد، لا على أساس المؤشرات الاقتصادية وحدها، ولكن على
الخصوص، من خلال مؤشرات التعليم والصحة، ويُذكر بصدد مستوى
العيش الذي يعكس الموارد الاقتصادية المتوفرة للأشخاص من أجل مستوى
لائق يمكن من تلبية الحاجات الأساسية ومن الإسهام في النمو الشامل
للمجتمع. وتؤثر في النمو البشري عوامل منها: السياسات العمومية والمساواة

بين الجنسين، وحيث إن هذا المفهوم مرتبط بالبيئة فقد صارينعت ب "التنمية البشرية المستدامة"، وذلك يعني الحفاظ على الموارد الطبيعية الضرورية للعيش والرفاه مع أخذ مصالح الأجيال الآتية بالاعتبار. ويتجلى من خلال هذه التعاريف تقدم في المنظور بالنسبة للمفهوم الاقتصادي الشائع سابقا وهو التكاثر (croissance)، تقدم أدمج فيه مستوى عيش الناس وجودته في البعدين الاجتماعي والسياسي، ومع ذلك فالغائب في مضمون هذا المفهوم هو المرجع المتعلق بمعنى الحياة، وهذا لا يعني أن البعد الأخلاقي في التنمية بعد غائب، بل هو حاضر، ولكن يرجع أصل الأخلاق إلى تجارب البشر، بمعنى أصل الأخلاق في الإيمان بالله وتوحيده غير مقرر، والذي ينبغي تبليغه للناس أن التزكية تعالج الأصل بالتركيز على المعنى، وهذا الأصل الذي هو الإنسان المنتج النافع لنفسه ولغيره المتساكن المتعاون، بمعنى أنه اقتصادي واجتماعي وسياسي، ولكن تفاصيله في الإسلام واردة في تعليم الكتاب والحكمة، ويهم من يبلغ إليهم هذا الترتاب أن يشرح لهم أن التزكية لا تعني الحرمان من المتع والطيبات، ولكن الإيمان يحمي المؤمن المتزكي من اعتبار اللذة غاية في الحياة، وهو ما يسمى عند بعض التيارات ب Hedonisme، كما ينبغي أن تشرح التزكية على أنها مبنية على الرحمة الشاملة بالمعنى القرآني مع قبول التفاوت في عمل العبادة بين المقتصد وبين الظالم لنفسه وبين السابق بالخيرات.

أيها السادة، أيها السيدات

بعد مفهوم الأمية ومفهوم التزكية نأتي إلى المفهوم الثالث وهو مفهوم النفس، لقد ورد في القرآن الكريم عن النفس ما يدل على أنها مدار أمر التغيير والتغير الإرادي في عملية التزكية، ومما ورد في النفس قوله تعالى: ﴿وَمَا أَتَّبِرْتُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَمَ رَبِّي﴾. (يوسف: 53)، وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِمُ

بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ (القيامة: 2) وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى
النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٦٨﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات: 39-40)، وقوله:
﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيَهَا ﴿٧٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾. (الشمس: 7-8)،
وقوله: ﴿وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (فاطر: 18)،
وقوله: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: 9
والتغابن: 16).

بالرغم من هذا البيان القرآني عن النفس فإن تفاسير التزكية لا تستحضرها،
ويترب عن ذلك حجب مصطلح أساسي في حياة الإنسان ألا وهو مصطلح
الحرية إزاء النفس، وهي المسئولية الأخلاقية عن الحرية الذاتية الضامنة
للحرية إزاء الآخر، أي الحرية السياسية، إن كون الرسول قد جاء ليظهر
المؤمنين من الشرك، معناه ليحررهم من عبادة أنفسهم، فعبادتها هي المعبر
عنها في القرآن باتباع الهوى، فهي الصنم الباطني الذي يولد مع الإنسان أمّارا
بالسوء وحاجبا عن الحقيقة، ولقد خلق الله تعالى في الإنسان الاستعداد لكي
يحقق هذا التحرر الذي هو سبيل الفلاح في الدنيا والآخرة، فالتزكية بلغة اليوم
تربية أخلاقية تحرر الإنسان من شح النفس حتى لا يعتدي على ما للغير وحتى
يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وهذا هو التغيير الذي أثمر المجتمع النموذجي من
الصحابة والسلف، كان النبي فيه أسوة أي نموذجا، وقد ظهرت في الأمة طائفة
بنت دعوتها على التزكية وعرفت باسم "الصوفية". وكان إسهامها في الدين
والتدين من أعظم ما أكرم به الإسلام أهله والإنسانية جمعاء، وهم طائفة
اختصت إلى جانب التذكير بحقيقة التوحيد بما يرتبط به من أنواع من نفع
الناس، وتتلخص حكمتها في عمل واحد ألا وهو إعمال الذكر من أجل إيقاظ
همة الذاكر حتى يكتسب نفسا لوامة تحاسبه على ما ينبغي أن يأتيه، وهو

المعروف، وما يجب أن ينتهي عنه، وهو المنكر، غير أن الحسبة التي مارسها العلماء من أمثال الشيخ زروق على الصوفية لم تفلح في كل الأحوال في نفع الأمة في التمييز بين دعاة التصوف الصادقين من خلال السلوك، وبين الأدعياء الدخلاء على هذا الأمر العزيز.

لا يخفى عن الإنسان عامة أن النفس تنجيه أو تهلكه، وقد تدفع به إلى الطغيان والظلم والتكبر في التعامل مع الآخر، وهي نفس فردية ذكر القرآن بصدها أن الإنسان خلق ضعيفا، وهي نفس جماعية ذكر بصدها في القرآن أنها تسببت في هلاك قرى، أي مجتمعات بأكملها، لأنها تواطأت على المنكر، وإذا رُبط تبليغ العلماء تغيير النفس بالتزكية فإن الناس في هذا العصر على استعداد لفهمها وفهم المهمة الثقيلة التي دارت عليها السيرة النبوية، فالإنسان المعاصر يعرف النفس لأنه يعاني أمراضها، وللنفس اليوم علم قائم يدرس ظواهرها ولا يجمع على اقتراح توجيه أخلاقي بعينه، وإن كان يرصد أمراضها وصحتها من الجهة الوظيفية، وللدراسات الحديثة من جهة طب الدماغ والجينات نتائج متعلقة بآليات الاستعداد للاستجابة، أي بالوازع في إطلاق الشهوة أو كبحها، وهي نتائج تهم المبلغ من حيث إن أمر التدين لصيق بمفهوم الاهتداء والاتباع.

كتب الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو بحثا بعنوان "تكنولوجيا النفس"، درس فيه مسألة النفس في التراث اليوناني والروماني والمسيحي، وتوقف عند حكمة تشترك فيها الثقافات الثلاث وهي القول: "اعرف نفسك بنفسك"، ومعناه: "اعرف أنك لست إلها". وخلص فوكو إلى أن الأخلاق المدنية الحديثة ترى أن معرفة النفس أساس الأخلاق، وتلتقي ملاحظته مع الربط القرآني بين الشح وفساد النفس. والتراث اليوناني المشار إليه يستعمل لفظة Ego في نعت النفس بالمعنى المذكور، ومنها لفظة égoïsme التي تُترجم في العربية

ب"الأنانية"، وحيث إن الناس يفهمونها، فيمكن للمبلغ في وقتنا أن يستعملها في وصف النفس الأمانة بالسوء.

اهتم الفكر الفلسفي الغربي بمفهوم النفس من خلال السؤال الآتي:
كيف يشتغل الأفراد على أنفسهم ليكونوا كما هم أو ليكونوا كما يريدون،
في حديث فوكو عن "تكنولوجيا النفس" انطلق من القول بأن هنالك أربعة مظاهر تغطيها التكنولوجيا بصفة عامة هي:

تكنولوجيا الإنتاج، وتكنولوجيا المعرفة من خلال رموز تبليغ المعاني،
وتكنولوجيا السلطان، وتشمل مؤسسات السياسة والحكم والقانون،
وتكنولوجيا النفس، وهي الممارسات التي يشتغل بها الأفراد لصياغة أفكارهم
وسلوكلهم وهولتهم الأخلاقية، وهو جانب يتعلق بالتقنيات التي تمكن الأفراد من
القيام بوسائلهم أو بمعونة غيرهم بعدد من العمليات على ذواتهم أو نفوسهم أو
أفكارهم أو سلوكهم أو أحوالهم من أجل تغيير أنفسهم للوصول إلى حال من
السعادة أو الصفاء أو الحكمة أو الإفادة، وبمعنى أوضح فتكنولوجيا النفس
هي ممارسة تغيير الذات التي يستعملها الناس للعناية بأنفسهم أو تمرين
أنفسهم أو بناء حياتهم لتقترب من حالتها الفطرية. ومن أجل رسم سيرة
الإنسان من مرحلة (العناية بالنفس) إلى مرحلة الذاتية الحديثة يرسم فوكو
تاريخ هذه الفكرة فيقول:

في عهد اليونان والرومان: كان الغالب هو العناية بالنفس ثم تشجيع الأفراد
على مساءلة أنفسهم ومراقبة شهواتهم من أجل غرس الفضيلة عبر التدبر أو
الكتابة أو الحوار، وكانت الفلسفة طريقة للحياة لا مجرد نظر، ومن الأمثلة
على ذلك سقراط الذي كان يقول: اعرف نفسك، وهو مذهب مرتبط بممارسة
أخلاق مراقبة النفس.

أما في العهد المسيحي الأول فقد صارت (العناية بالنفس) مرتبطة بالطاعة والاعتراف، وكانت معرفة النفس تتحقق عبر إظهار خطايا الشخص للآخرين (أمام رجل الدين أو أمام الإله). وهكذا تحول القصد من السيطرة الذاتية الشخصية إلى الخضوع للحقيقة الإلهية، وتبعت ذلك ممارسات كالاعتراف ونكران الذات والتوجه الروحاني والمراقبة المستمرة للضمير.

أما في العصر الحديث فقد ارتبطت تكنولوجيا النفس بالسيكولوجيا والتربية وبالخطاب الطبي ومن ثمة تشجيع الأفراد على اكتشاف حقيقة أنفسهم في إطار أنساق من المراقبة والتطبيع مثل اللجوء إلى الاستشفاء أو حتى وسائل التواصل الاجتماعي في وقتنا هذا، ويرى فوكو أن الهوية الحديثة يتدخل في صياغتها عنصران هما الحرية والأشكال الخفية للسلطة، وأن البعد الأخلاقي لا يتعلق بالخضوع للقواعد ولكن بالعلاقة التي يربطها الإنسان بنفسه، أي بسيرونة التشكل الذاتي، وهو يسمى هذه السيرونة ببناء الذات subjectivation وهذا يقتضي:

- 1- معرفة الذات من خلال مراقبة الأفكار والتصرفات؛
- 2- السلوك الذاتي (من خلال مراقبة الرغبات والعوائد)،
- 3- التغير الذاتي من خلال الاشتغال نحو الاحسن، أي من أجل تحقيق شخص أكثر حرية.

ويرى فوكو أن تكنولوجيات النفس لا وجود لها بمعزل عن السلطة بالمعنى العام، فكل ممارسة للتغير الذاتي تصوغها بُنى اجتماعية ومعايير ومؤسسات، ومع ذلك فالناس ليسوا مجرد محكومين، بل إنهم يسهمون في بناء أنفسهم، وهكذا فالحرية ليست استقلالاً تاماً بل هي القدرة على التفكير والمقاومة والاشتغال على النفس في إطار أنساق السلطان بمعنى النظام العام السائد.

أيها السادة، أيتها السيدات،

لا يتأتى لنا في هذا الحديث أن نتتبع بنفس التوسع مفاهيم أخرى واردة في القرآن أو في السنة والبحث عن مضامينها أو عن مقابلات لها في الفكر الحديث بنفس القصد المذكور في البداية، وهو تقريب السيرة النبوية أو تقريب القرآن من جمهور يتعامل مع تصورات ذات مرجعيات في الحياة الحاضرة، وإنما سنقتصر على ذكر مقتضب لعشرة منها، مع الإشارة إلى ما تثيره على سبيل التداعي عند جمهور غير معتاد على الربط بينها وبين مقابلها في القرآن أو السنة، وهي:

أولاً: مفهوم المحاسبة أو المساءلة، وهو مفهوم عميق في القرآن والسنة، ويستعمل في النقاش السياسي المعاصر في باب التخليق وتسديد الحكامة وكأنه من ابتكارات هذا العصر، وهو ليس كذلك؛

ثانياً: مفهوم التواصل بالحق، وهو مفهوم عميق يلامس فلسفة الأنوار التي تدّعي اكتشاف التعدد في البحث عن الحقيقة، وهو في نفس الوقت مفهوم يمكن أن يؤصل للمؤسسات السياسية القائمة على التعدد المحكوم بإيجاد التوافق؛ واقتترانه في القرآن بالتواصي بالصبر تجاوز مثالي لم يرق إلى تحقيقه الإنسان إلى وقتنا هذا في باب الممارسة السياسية، لأن الإنسان باحتساب الصبر يتعدى الأخذ إلى العطاء، وهو مقام يدخل في الحكمة المتأتية التي تحرره من هواه؛

ثالثاً: مفهوم التعاون على البر والتقوى الذي يليق استدعاؤه مؤصلاً وضابطاً لروح المجتمع المدني؛

رابعاً: مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يمكن استدعاؤه لتأصيل مفهوم دولة القانون؛

خامساً: مفهوم "السعي"، ويمكن استدعاؤه لبعدين اثنين، بعد العقلانية في عمل الإنسان، مؤسساً على سنة الله في الكون، وبعد العدل، ومنه عدل الله الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وهو ما يفترض فيه أن يحكم علاقات التعامل بين الناس من قبيل ما جاء في السنة من وجوب الإسراع بأداء عمل العامل؛

سادساً: مفهوم "التبليغ"، وهو ما يتوجب ربطه بالإعلام في بعده المهني المشروط بالبيان، وبعده الأخلاقي المشروط بالتبين؛

سابعاً: مفهوم "العرض" وما يرتبط به من الحياء وعدم إشاعة الفاحشة، ويمكن أن تستدعى بصدده الجهود الحقوقية المرتبطة بحُرمة الحميمة وحماية المعلومات الشخصية؛

ثامناً: مفهوم "الفتنة"، والدين يكره كل أنواعها ودرجاتها ويظهرها منافية لسكينة الإيمان ووقاره، يجب درؤها بجميع وسائل التقوى، وهي درجات من اضطراب العقل على المستوى الفردي ومن الإخلال بالنظام الجزئي أو بالنظام العام والاستقرار، تنشأ عن زيغ القلوب، من مساوئها أنها قد تصيب حتى الأبرياء من غير الظالمين؛ يعتمد المجتمع الحديث في المناعة منها على القانون واستعمال السلطة، والدين على مثل ذلك، ولكنه يعتمد قبل كل شيء على قوة البصيرة في قراءة العواقب، وكل محاولة للوصول إلى الحق بالفتنة باطلة في الدين؛

تاسعاً: مفهوم "الحلال والحرام"، ويمكن إسقاطه من منظور العصر على مشمولات مجال القانون وامتداده، ومن ثمة فهو مساوق لحقوق الله وحقوق النفس وحقوق الغير، ويتصل بالوقاية قبل كل شيء، ويغلب على الناس الميل إلى حصره في نطاق ضيق يتعلق بالحرمان من بعض الحاجات المتصلة باللذة في المأكل والمشرب، بينما مجاله الأرحب في العمل والمعاملات؛

عاشرا: مفهوم "الحياة الطيبة"، ويقابلها في الاستعمال السائد مفهوم السعادة وحسن الحال، وحيث وضع لها القرآن شرطين هما الإيمان والعمل الصالح، فهي مؤصلة في المعنى وتؤسس لغيرية خالصة بعيدا عن الشح والطمع والأنانية. بمعنى أنه لا يوجد لها مقابل شامل في مصطلح العصر، ومنها جانب المعاش الذي وصفه القرآن بالطيبات، وقد ربطها بحاجات منها الذرية والأزواج والطعام والمساكن والبلدان، وذكر ضدها الخبائث.

أيها السادة، أيتها السيدات،

إن العامل الأساسي في بروز مصطلحات جديدة لمفاهيم لها نفس المضمون المتأصل في القرآن والسنة هو تطور البشرية في آفاق خارج أغلبية البلدان المسلمة، وما تبع ذلك من تطور السلوكات السياسية والاجتماعية بشكل مغر للمسلمين، سيما إذا لم يستحضروا في جانب العمل مرجعيتهم الأخلاقية، وسرعان ما ظهرت الحاجة إلى تبيين العلاقة بين مضمون مفاهيمهم الأصلية وبين مضامين المفاهيم المستعملة ابتداء في آفاق غير بلدانهم.

غير أن التطور التاريخي لم يسفر عن مجرد اختلاف في المصطلح وبعض جوانب المضمون، ولذلك فإن إدراك هذا الواقع لابد أن يحضر شرطا أساسيا عند تعامل العلماء مع القرآن ومع السيرة النبوية في وقتنا هذا، طلبا لجدوى التبليغ، لأن ما يتصل بهما يقتضي الوقوف، لا على مجرد بيان الانحراف في السلوك بالنسبة لما جاء في القرآن والسنة، بل على ضرورة استحضار بعض سيرورات التغيير الكبرى التي أطلقها الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكنها تعرضت لنوع من الإجهاض بناء على ميولات وتأويلات اجتماعية تعبر عن مصالح فئوية ربما ساوقتها تبريرات وتأويلات فقهية، وإذا تبين أن بعض هذه السيرورات كانت مستحيلة التنزيل في حياة المسلمين بعد حياة الرسول بفعل غياب التربية الروحية التي هي التزكية، فإن مصير هذه السيرورات اليوم يبدو ذا

وزن كبير قد يظهر سلبيا في تعامل المسلمين مع العالم، سيما إذا لم يقرؤا بأن هذا الإجهاض التاريخي وقع بالفعل، وكأن الإشارة في القرآن قد وردت بصدهه في قوله تعالى: ﴿أَبَايَسَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ إِنفَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ (آل عمران: 144)، وسنقتصر على ذكر سبع من هذه السيرورات المجهضة:

- أولا: الترجمة بالحال والعمل للتوحيد كوقاية من الشح الذي قد يصل إلى درجة الطغيان على مستوى الأفراد والجماعات والبلدان، وهنا لابد من الإقرار بالحقيقة المتمثلة في الحضور الدائم للحاجة إلى هذه الترجمة العملية للحياة على أساس التزكية، وجاء التعبير عن محاولات إحيائها على أيدي من سمووا بالصوفية الذين نجدهم في بعض الأحيان يسمون أنفسهم بأهل "التوحيد الخاص"، بعد أن تقلصت التزكية من الفضاء العام وصارت ترجمتها بالحال والعمل غريبة كمظهر أساس من "غربة الدين"، بعد أن كانت هي الأمر الطبيعي في عهد النبوة. وقد كان الموقف من هذا التيار هو التحفظ عموما، إما ورعا وإما خوفا من مزاحمة ذوي النفوذ السياسي أو من بعض العلماء الذين يؤثر بعضهم الانتصار لمقام تعليم الكتاب، ومن فضائل الصادقين من أهل التصوف أنهم ظلوا ينطلقون في تربيتهم من الحرص على محاسبة النفس؛

- ثانيا: الشورى: وأساسها المستدام هو التواصي بالحق الذي يمكن أن يُقدم للأجيال المعاصرة على أنه مؤصل للمبتغى الافتراضي من "النظام الديموقراطي"، ولكن عدم سواد التربية على التوحيد بعد عهد النبي، أي غلبة الأنانية، قد يؤدي إلى ما يشاهد في عصرنا من الإخلال المفرط بثمرات نظام الأغلبية في العدل؛

- ثالثا: ظهور الإكراه في الدين بعد الفتح الذي أظهر النموذج المطلوب على الأرض، فقد كانت حروب النبي دفاعية حتى تبين الرشد من الغي، وقد

سمع الناس في عدد من آفاق الأرض بفضائل الإسلام، لاسيما في التحرير من أنواع الظلم، فتشوفوا إلى هذا الدين الجديد ورحبوا به، ولكن هذا الواقع لم يكن حاضرا في تاريخ ما سمي بالفتوح، وإنما حضر القتال والسبي والتخمين والجزية وما صاحب ذلك من المظاهر التي لا يمكن لضمير الغيورين على الإسلام اليوم أن يدافعوا عنها، ومن أمثلتها تصرف بعض الولاة مع أهل المغرب بين منتصف القرن الأول ومنتصف القرن الثاني للهجرة، ومن الحجج التاريخية على ضرورة هذه المراجعة أن انتشار الإسلام في معظم بقاع الدنيا جاء على أيدي الدعاة المصلحين والتجار، ولم يجرى بـ "الفتوح"، ثم إن هذه القضية ترتبط بالضغط الذي تمارسه اليوم على المسلمين جهات نافذة في العالم في موضوع حرية المعتقد، والإشكال هو أن ما يليق بالمسلمين هو أن يفخروا وأن يمثلوا نموذجا جذابا مغريا بمثالهم في الحياة الدنيوية ليتعشق الناس للحاق بهم في حياتهم الدينية؛

- رابعا: إلغاء الرق وتحرير العبيد، ذلك أنه وبالرغم من حض الإسلام على هذا التحرير بمختلف أنواع التحريض فقد دام الاستعباد وكأنه أمر عادي طيلة القرون وإلى عصرنا هذا لتفرض علينا إلغاءه أوفاق الآخرين باسم الإنسانية، ومن أسباب إجهاض سيرورة تحرير العبيد ما سمي بالفتوح على غرار فتوح الإمبراطوريات القديمة؛

- خامسا: عدم إلغاء القبلية والنظام القبلي، واستمرار الاعتداد بالهوية القبلية التي كانت من عناصر حياة الجاهلية، وما هو أكثر سلبية في هذا التقهقر هو التمسك بالأعراف المخالفة لما كرسته السيرة النبوية؛

- سادسا: التراجع عن مظاهر من تكريم المرأة مثل تكريم الرجل، والقرآن يكرس هذه المساواة ولكن التقهقر بالنسبة لما تحقق جاء جانب منه بتأثير العقلية القبلية المتجذرة. وفي هذا الموضوع نشير إلى كتاب سيدة فرنسية

كانت وزيرة في حكومة دوكول الأولى واسمها جيرمين تيون وعنوان كتابها "الحريم وأبناء العمومة"، وتعتبر عمل الرسول في حق المرأة عملاً لم ير له مثيل في التاريخ، وكذا كتاب السيدة ليلي أحمد التي عرفتُها وهي أستاذة في جامعة هارفارد، وكتاب المستشرقة الألمانية الكبرى آن ماري شيمل، وعنوان كتابها "روحي امرأة"، وأخيراً كتاب الدكتور محمد هيثم الخياط "الإسلام وقضايا المرأة المعاصرة"؛

- سابعاً: الملاءمة بين الكونية والوطنية، لأن ظهور التيارات القومية في هذا العصر اعتبرها البعض من سلوك الجاهلية، ولا تصح هذه التهمة إلا إذا وقع تغليب هذه الهوية على الانتماء إلى الدين في سياق الاتصال بالغرب بمختلف تياراته الفلسفية، والحالة أن محبة الوطن وهي شعور فطري طبيعي كان من فضائل رسالة الإسلام.

أيها السادة، أيها السيدات،

إذا لم يتم التعامل مع المفاهيم الرائجة في بيئتنا بما يظهر مضمونها للناس الحاملين لثقافة العصر أو للعموم المشدوهين أمام نماذجه في الحياة، وإذا لم يقوم العلماء بالنقد اللازم لتصرفات المسلمين من حكام ومؤثرين، فإن مهمة تبليغ القرآن والسيرة للأجيال المقبلة ستظل غير ناجعة، بمعنى أن تأثير العلماء سيظل دون المستوى المطلوب، لاسيما أمام الأطراف المختلفة المستعملة لتكنولوجيا التواصل لتمرير خطابات مقطوعة عن الأصل الذي يعتقده أهل الإيمان.

إن رأس الحكمة مخافة الله، وبيت القصيد في جملة ما أشرنا إليه في هذا الحديث هو أهمية القرب في التبليغ والدعوة إلى الله، ومصطلح القرب يستعمل اليوم في السياسة وفي كل المقاربات الاجتماعية والتنمية إلا في التبليغ، وهو مؤصل في القرآن من قوله تعالى عن نفسه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي

فَرِيبٌ﴾ (البقرة: 185)، وفي منهاج الرسول الذي وصفه القرآن بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: 129)، واليوم بدخول تكنولوجيا التواصل صار حذاق الكلام باستعمال هذه الوسائل يدعون بالمؤثرين، علما بأن بعض كلامهم يدخل في المصالح الدنيوية المطلوبة والنصائح النفسية المرغوبة، ولكنه في معظمه مقطوع عن أصل الخير والطمأنينة على الحياة وعلى المصير أي عن المرجع الرباني، ولا عذر للمبلغين في عدم القدرة على هذا الحضور أو السعي إلى هذا القرب بأنهم المحقون وعلى الناس أن يطلبوهم، وبعض هؤلاء المبلغين لهم العديد من المتابعين ولكنهم ممن سماهم علي بن أبي طالب بـ "آباء اعرفوني" أي طلاب الشهرة والزعامة بالكلام في الدين، وبعضهم يصنع الشهرة على تعليم الفروع وعلى الأجوبة عن الجزئيات التي لا تفيد في تفسير العلاقة مع الحياة الحاضرة، وإنما يخاطبون ما يسكن عددا من المتدينين وهو الخوف أو حب المخالفة، في حين أن القرب المطلوب هو الجمع بين بيان القصد وبين قرب المكان وقرب المحبة الصادقة والنصيحة المستنيرة، أي الثقافة التي بها يتمكن المبلغ من ربط جسور الفهم بين مفاهيم مؤصلة بالنقل والعقل وبين اصطلاحات استنبطتها الإنسانية مما أظهره الله في هذا الكون من الآيات والظواهر والتجارب التي يحسن ربطها بأصلها سواء في الخلق أو في الأمر، وكان بعض الحكماء يقولون: "ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يظهر في الكون غير ما أظهره الله"، وهو كلام حكمة إذا لم يفهم على أنه يكرس سلبية المتفرجين الذين لا يأمرن بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، ولا يتحملون ولا يحملون الناس المسؤولية في الصلاح والفساد.

أيها السادة، أيها السيدات،

وأنا أجمع عناصر هذا الحديث ذكرت كتابين في مكتبي أحدهما عنوانه "الأبطال" كتبه طوماس كارليل في منتصف القرن التاسع عشر ووضع الرسول في مقدمة شخصياته، والثاني عنوانه "المائة: تقويم لأعظم الناس أثرا في التاريخ" كتبه مايكل هارت في الثمانينات من القرن الماضي، وجعل الرسول على رأس المائة، وما أريد أن أقوله هو أن هذين الكاتبين نظرا في الرسول وعمله من منظور ثقافتهم وبالمقياس العالمي للقيم، فنحن نعظمه إيماننا وتعبدنا وعلمنا ويقينا، وهذان وغيرهما من المنصفين عظموه من جهة الفكر والمعرفة والمقارنة، ولا يتأتى لنا هذا الاكتمال في النظر إلا بقدر الغوص في ثقافتهم والتخلص بالعلم من العقد إزاءهم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.